الفصل الأول

المجتمع الأوربى فى قيامه وتطوراته

كثر الحديث فى بعض المذاهب الفلسفية المادية فى القرن التاسع عشر ـــ بعد ازدهار الثورة الصناعية الأوروبية (١) وزيادة رأس المال فى الصناعة اثر تحوله من مجال الزراعة ـــ عن الصراع الطبقى فى المجتمع الأوروبى ، وعن ضرورة انهاء هذا الصراع عن طريق حل واحد يتحتم لذلك ، وهو :

(أ) الغاء الملكية الفردية ونقلها الى الدولة .

(ب) وسيادة الطبقة العاملة فى الاشراف على المزارع والمصانع على السواء .

---

(١) الثورة الصناعية الأوروبية قامت فى انجلترا أولا حوالى سنة ١٧٦٠ م . وهى الثورة الصناعية الأولى ، عندما تحول المغزل اليدوى الى ميكانيكى فى صناعة النسيج . وقد ساعدت هذه الثورة على ظهور الثورة العالمية العمالية التى تأسست على فلسفة « كارل ماركس » فى القرن التاسع عشر .. والتى تقوم على ادعاء « التقدمية » واعتقاد وقوعها الحتمى .

والثورة الصناعية الثانية ـــ الأوروبية او الغربية ـــ هى ثورة التيكنولجيا منذ النصف الثانى للقرن العشرين . وساعدت عليها الحرب العالمية الثانية . وهى تنقض حتمية الثورة التقدمية العمالية العالمية ، التى نشأت قبلها فى القرن الماضى ، بمساندة الفلسفة الماركسية ، والتطبيق اللينينى لهذه الفلسفة فى روسيا ، اثر الثورة البلشفية فى اكتوبر سنة ١٩١٧ م .

(ج) وضع نظام سياسى يكفل تنفيذ هذين الاتجاهين فى دقة واخلاص . وهو نظام الحزب الواحد الذى تنتهى القيادة فيه الى ارادة فرد واحد .

ويسمى هذا الحل المكون من النقاط الثلاث بالتقدمية أو بالتقدم الاجتماعى أو بالثورة الاجتماعية ، وهو حل يدعى أنه حتمى الوقوع فى المجتمعات البشرية — حسبما ترى هذا المذاهب المادية — تقدم الزمن أو تأخر . أوبعبارة أخرى : هذا الحل هو مصير البشرية الذى لا مفر من الانتهاء اليه . ولذا فتطبيقه فى أى مجتمع منذ الآن ينطوى على تقدم فى الوعى بمصير المجتمع الانسانى الأخير الحتمى !! . ولأن هذا الحل حتمى — كما هو منطق الفلسفة الماركسية التى تسانده — فتأخره فى الوقوع يعود الى تعويق العناصر أو تعويق الطبقة التى لها مصلحة فى عدم وقوعه ، وهى الطبقة التى تتشبث بالحكم ونظامه القائم ، أو تلك الأخرى التى تساندها باسم المقاييس الخلقية ، وهى طبقة رجال الدين .

وكلتا الطبقتين تأخذ اسم « الرجعية » فى مفاهيم هذه الفلسفة الماركسية المادية .

ولكى لا يتأخر هذا الحل الماركسى فى حتمية وقوعه ، أى لكى لا يتأخر زمنه ، أو لكى يستعجل تحقيقه ووقوعه .. ينادى هذا المذهب المادى :

- بـ « الثورة » أو بـ « الانقلاب » أى بالعمل غير المشروع لقلب نظام الحكم القائم فى المجتمع الانسانى — أى مجتمع انسانى —
- والتنديد بالدين ورجاله .
- وتحويل المجتمع الى مجتمع عمالى — بعيدا عن الاتجاهات الوطنية ، والاقليمية ، والدينية — على أن يأخذ مسيرة الحركة العمالية ، وينضم اليها للمشاركة فى القضاء أخيرا على ما تبقى من نظم الحكم الرجعية ، أو نظم الحكم الرأسمالية فى العالم الحر .

والانقلابات غير المشروعة تأخذ اسم حركات التحرير فى اتجاه هذه الفلسفة .

ودعاة هذا الانقلاب ينعتون أنفسهم بالمحبين للسلام .

والمخربون اللاانسانيون فى تلك الانقلابات هم أبطال التحرير أو السلام العالمى .

ولكى تبرر الثورة التقدمية — وهى ثورة دموية — هذا العمل الانقلابى غير المشروع الذى يقوم على وسائل التخريب أو الارهاب .. أدخلت فى ايديولوجية نظام الحكم العمالى أو الماركسى ، كجزء لا يتجزأ منها ، مذهب « البراجماتزم » أو مذهب « المصلحة » كتوجيه أخلاقى .

والقصد من المصلحة هى :

مصلحة النظام العمالى فى الحكم .

أو مصلحة الحزب الوحيد المساند له .

أو مصلحة الفرد الذى آلت اليه مقاليد الأمور وحده فى تدرج من التنظيمات السياسية ، بحيث يصبح هو قمة هرم من القادة والمسئولين عن صون هذا النظام وتنفيذه .

وبذلك تحاول هذه الفلسفة أن تضفى على « اللاشرعية » للثورة الدموية صفة الشرعية والأخلاقية معا .

وبامتداد الزمن الى القرن العشرين ، وبانقلابات نظم الحكم التى تمت فى شرق أوروبا اثر الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٤٨ م .. أصبحت الطبقة السائدة أو التى يدعى لها السيادة فى بلاد نظام الحكم الماركسى أو الشيوعى أو البلشفى فى القسم الشرقى من أوروبا ، هى الطبقة العمالية أو الطبقة الكادحة من عمال المصانع والفلاحين بالمزارع . هى الطبقة التى يقول عنها نظام الحكم البلشفى : انها كانت موضوع استغلال الطبقات الأخرى غير العمالية فى المجتمع الأوروبى ، وبالاخص لطبقة أصحاب رؤوس الأموال فى المصانع ، وطبقة الاقطاعيين فى المزارع .

وبرفع الطبقة العمالية — ولو نظريا — الى مستوى السيادة والحكم فى المجتمع ، تسقط امتيازات الطبقتين الأخريين ، وهما : الطبقة الأرستقراطية ،

وهى طبقة الأثرياء أو النبلاء ، والطبقة البرجوازية ، وهى طبقة المثقفين والمفكرين ، والعلماء ، أو الطبقة التى تعرف بالطبقة الوسطى .

... كما يجب — بجانب سقوط امتيازات الطبقتين الأخريين — أن تنهار القوانين الأخلاقية ، والأعراف ، والعادات ، والتقاليد والدين ، التى كانت تقنن سلوك المجتمع ، والتى كانت تعيش فى ظلها طبقات المجتمع الأوروبى الثلاث فى درجاتها المختلفة من قبل ، بما فيها طبقة العمال .

... ثم يجب أخيرا : أن تحل محل هذه القوانين والمقاييس الأخلاقية قوانين جديدة تسود المجتمع ، وهى تلك القوانين التى تعبر عن مصالح العمال فى المصانع والمزارع وحدهم ، كما تعبر عما تنطوى عليه نفوسهم من حقد على الأثرياء ، والبورجوازيين معا ، وعن رغبتهم فى الانتقام منهم والسخرية بهم .

ونعتقد هذه الفلسفة الماركسية المادية الاجتماعية : أنها بجعل الطبقة العاملة فى المجتمع صاحبة السيادة فيه تنهى ما تسميه « بالصراع الطبقى » كما تقرر السلام بين أفراده ، بحيث لا تعود الطبقية فيه من جديد ، وبالتالى لا يعود صراع بين (١) طبقاته .. بينما فى التنظيم السياسى الحزبى لهذا النظام الماركسى ينكشف الأمر فى التطبيق عن وجود الصراع مرة أخرى فى هذا المجتمع الماركسى ، وهو صراع ينتقل هذه المرة الى

---

(١) منذ وفاة « ستالين » فى سنة ١٩٥٣ ظهر الصراع المكبوت من اجل الحرية الفردية بين شعوب الاتحاد السوفييتى ، وتبلور هذا الصراع فى المطالبة بالاصلاح الاقتصادى والحرية الثقافية وحرية الكلمة .

ومنذ سنة ١٩٦٥ تجلى هذا الصراع بين ما يعرف بالقديم وهو الاتجاه الأرثوذكسى فى الماركسية اللينينية وما يعرف بالجديد فيها ، وهو اتجاه يدعو الى التحرر من ديكتاتورية الحزب ، كما يدعو الى الحرية التعبيرية وجميع الحقوق المدنية .

الحزب من جانب والشـــعب من جانب آخر : الحزب كفئة مختارة متميزة بالحكم ، والشعب كقاعدة عامة تتلقى التوجيه وأوامر الحزب .

***

وبمراجعة تاريخ المجتمع الأوروبى منذ عهد الاغريق قبل الميلاد ومـــا بعد الميلاد فى القرنين الأخيرين : التاســـع عشر والعشرين .. نجـــد أن هذا المجتمع تكون على أساس طبقى ، وأن هذا التكوين صحبه « تبرير » ميثالوجى أولا ، ثم فلسفى بعد ذلك يوضح ضرورة الوجود الطبقى فيه ، وفى كل مرحلة من مراحل تطوره .

والفلسفات الاجتماعية الأوروبية ما بين : مثالية ، ومادية تستهدف هذا التبرير فى صورة أو فى أخرى .

ولم تنجح المســـيحية عندما دخلت رومـــا ـــ عاصمة الامبراطورية الرومانية ـــ فى ازالة الطبقية من المجتمع الأوروبى ، واعادة تكوينه على أساس متساو فى الاعتبار البشرى .

وهو أساس الاخوة فى الدين والايمان والقيم الانسانية . لأن المسيحية عندما دخلت رومـــا تأثرت بالوضع المـــادى للامبراطورية وبنظمهـــا فى المجتمع ، فلم تبق كدين وكمجموعة من المبادىء الروحية والأخلاقية فقط . وانما سرعان ما غلب عليها طابع الدولة فى صورة الكنيسة وسلطة رجالها . ومن ثم سعت الى الحكم ، والسيادة ، وسلطة الدولة .

واذا حاولت أية منظمة أن تباشر سيادة وحكما على ما عداها فمعنى ذلك أن القائمين بأمرها يتميزون عن الآخرين فى المجتمع ، وبتميزهم يقوم الفصـــل بينهم وبين الآخرين .. وهكذا الفصل بين مجموعة من الأفراد ومجموعة اخرى منهم هو أخص مظاهر الطبقية .

***

ولكى يتضح التكوين الطبقى للمجتمع الأوروبى ـــ الذى كان له أكثـــر من عشرين قرنا الآن واستمر فى صورة أو فى أخرى حتى الوقت المعاصر ،

رغم التبرير الفلسفى الذى يحاول أن يطبعه بطابع انســـانى .. يجب أن نستعرض فى اختصار تطورات هذا المجتمع من وقت قيامه عند الاغريق فى صورة مدنية ، اخذت نظام الدولة وترابط الادارة :

١ ـــ ورث فلاسفة الاغريق مجتمع الكهنوت والوثنية . ونظام الكهنة ، وعقيدة الوثنية كلاهما يقوم على امتيازات للمستويات التى يتكون منهـــا ذلك النظام ، ولتلك الآلهة العديدة التى يعتقد بتأثيرها نفعا أو ضـــرا فى مجرى الحيـــاة الانسانية على الأرض . وكان الكهنة هم الذين يمثلون الطبقة العليا فى المجتمع الاغريقى ، على من عداهم .

وعندما عرفت أثينا بالفلسفة ، أى عندما دخلت الفلســـفة الاغريقية مجال الانســـان والمجتمع كنظام للحيـــاة والدولة ، ظهر « أفلاطون » فى « جمهوريته » يعكس ما عرفت به الفلسفة الاغريقية الانســـان من انه : « حيوان ناطق » على المجتمع ككل .

ويرى فى تطبيق هذا التحديد أن المجتمع يتكون من ثـــلاث طبقات :

أولاهـــا وأعلاهـــا : طبقة الفلاسفة .

وثانيتهما وهى الوسطى : طبقة المحاربين أو المدافعين عن المجتمع ضد الغزو الخارجى .

وثالثتهما وهى أدناها : طبقة الخدم أو العبيد . وهى الطبقة التى تقوم بخدمة غيرها من الطبقتين السابقتين .

فالحيوانية التى هى جزء فى تعريف الانسان وتحديده عند الاغريق ، ترمز الى الغرائز فى طبيعته .

والغرائز هى تلك القوى التى تدفع الانسان الى السلوك والتصرف ، دون الحاجة الى وعى ، والى شعور .

... بينما الجزء الآخر فى هذا التعريف ـــ وهى « الناطقية » ـــ يشير الى الادراك ، أو العقل ، أو الشعور وهى تلك القوة فى الانســـان التى ترجح عند الحكم ، وتريد وتصمم عند التنفيذ .

ومن أجل ما تقوم به هذه القوة المدركة من تحليل ، وترجيح ، ثم من اختيار ومشيئة تتميز عن تلك القوة الأخرى الدافعة نحو العمل فى عماء وفى غير احتياط وهى الغريزة ، كما تعتبر خصيصة الانسان وما يتميز به عن الحيوان .

والفرد من الانسان اذن يتمتع فى طبيعته :

بقوة دافعة .

واخرى موجهة .

وتصرفه ، كسلوكه يعبر عن خليط واضح تماما ، وغير منفصل بعضه عن بعض ، من آثار هاتين القوتين معا .

ومع ذلك قسمت الفلسفة الاغريقية فى النظام الفلسفى « لأفلاطون » : النفس الانسانية أو الطبيعية البشرية الى ثلاثة جوانب أو الى ثلاث دوائر رئيسية :

الجانب الحكمى : وهو يمثل هداية العقل وحكمته .

والجانب الغضبى : وهو فى الغرائز يمثل ميل الانسان الى المقاتلة والدفاع .

والجانب الشهوى : وهو فى الغرائز أيضا يمثل ميل الانسان الى المحافظة على البقاء الشخصى والنوعى بما تحتاج اليه المعدة من أكل وشرب، أو بما يحتاج اليه الفرج من معاشرة جنسية .

ونظرت هذه الفلسفة الى هذه الجوانب نظرة غير متساوية . أى فاضلت بينها وميزت بعضها عن بعض . فاعتبرت الحكمة الجانب الأعلى ، تقابلها الشهوة تماما على أنها الجانب الأدنى ، ويتوسط النوعين الجانب الغضبى .

وتأثرا بهذا التقسيم فى نفس الفرد وطبيعته ، وبالتميز بين جوانبه الثلاثة خرجت نظرة « أفلاطون » الى المجتمع الانسانى بأنه : على شاكلة نفس الفرد فى طبيعة التكوين والتقسيم ، ثم فى التميز والتفضيل ، وانه

اذا كان الفرد صورة مصغرة للعالم الانسانى فالعالم الانسانى كمجتمع كبير يوضح معالم الفرد .

واذا كان المجتمع ينظر اليه كوحده — كما ينظر الى الفرد — فهو فى داخله يتكون من طبقات ، يعلو بعضها بعضا ، ولا يمكن أن تتساوى فى الاعتبار الا فى التنسيق بينها ، بحيث يؤدى تنسيقها الى تفاعل ، والى حركة المجتمع فى بقائه . كما ينسق بين قوى النفس الفردية ، ضمانا لوجود الفرد وحركته التى تصون ذاته ، وتصون ذوات الآخرين معه فى مجتمعه .

والطبقة التى لها الرياسة فى المجتمع هى طبقة الحكماء والفلاسفة . لأنها تمثل الحكمة والعقل . ورياستها هى لضمان التوجيه السليم فى الدولة . اذ توجيهها فوق التأثر بالانفعالات والقوة الغضبية فى خصائصها ، وفوق التأثر كذلك بالشهوة والقوة الشهوية فى خصائصها .

والطبقة المقاتلة أو المدافعة هى طبقة المحاربين أو طبقة الجيش . وهى تتلقى الأوامر بالدفاع والحماية من تلك التى تعلوها ، وهى طبقة الفلاسفة ، نظرا لحكمتها وبعد نظرها فى التدبير .

أما الطبقة الدنيا فى المنزلة والعمل أيضا ، فهى طبقة العبيد والخدم فقيمتها لا فيما تبديه من رأى فى التوجيه ، ولا فيما تقاتل وتحارب من اجل الوطن والمجتمع ، لأنها لا تستطيع أيا من المهنتين . ولكن فيما تقوم به من خدمات منزلية ، وخارجية : فى الحقول ، وشوارع المدن ومرافقها العامة ، هذا العمل الذى يمكن الطبقتين الأخريين من أداء ما نيط بهما ، بحكم خصائصهما الطبيعية .

والعمل اليدوى اذن فى هذا التكوين للمجتمع الاغريقى أقل قيمة من العمل العقلى أو الذهنى .

فاذا انطوى العمل اليدوى على شجاعة ، كما فى عمل المحاربين فهو

ارفع شأنا من ذلك النوع الآخر منه الذى لا يحتاج الا الى قوة عضلية فى انجازه .

فالشجاعة فى المحاربين فى أولى مراحلها تقوم على التفهم التام والوعى الواضح بالمجتمع وأهدافه ووجوب المحافظة عليه . وهذا أمر يقرب عمل المحاربين الى درجة الحكماء ، ويرفعهم عن ذلك العمل اليدوى الآلى ، وهو ما نيط بالطبقة الدنيا ، وهى العمال والعبيد .

***

٢ ــ وعندما ذهب استقلال « أثينا » وأصبحت جزءا من الامبراطورية الرومانية فى الغرب التقى تكوين المجتمع الأثينى الفلسفى بتكوين المجتمع الرومانى المـادى على الطبقية ، وان اختلف تحديد الطبقات فيهما ، حسب مقياس الأفضلية بينهما .

فالمجتمع الرومانى الامبراطورى هو مجتمع فرسان ومحاربين : مهمتهم الفتوح والمغامرات فى الشرق والغرب على السواء . وتوسع الامبراطورية الرومانية كان بفعل الغزو ، وبفضل قيادة الفرسان الغازين : سواء فى أوروبا ... الى انجلترا ، أو فى شمال افريقيا أو فى آسيا ... الى حدود الامبراطورية الفارسية فى الشرق الأدنى .

ومجتمع الفرسـان والغزاة لا يمكن أن يكون مجتمع مساواة بين افراده ، كما لا يمكن أن تكون فيه طبقة تعلو طبقة المحاربين ورجال الجيش فيه . لأن تأسيسه كان بعملهم ، ولأن بقاءه كذلك مرهون بقيادتهم .

وهنا كان الاختلاف بين المجتمع الأثينى الفلسفى والمجتمع الرومانى الامبراطورى هو : أن طبقة الفرسان والمحاربين التى تمثل القوة الغضبية فى الانسان حلت هنا محل طبقة الفلاسفة فى المجتمع الأثينى والتى تمثل الحكمة فى الانسان أيضا .

وانتقلت بذلك طبقة الفلاسفة والمفكرين الى المنزلة الثانية فى المجتمع الرومانى ، بينما بقيت طبقة العمال والعبيد فى المنزلة الدنيا ، لم يتغير وضعها الاجتماعى ولا الوظيفى فيه .

فالطبقية فى المجتمع الرومانى الامبراطورى لم تزل أساس تكوينه . وفقط عندما وضع المحاربون أنفسهم فى مستوى الأرستقراطيين أو فى المستوى الأول فى المجتمع تميزا العمل العضلى على العمل الذهنى ، ووضعت القوة الغضبية فوق « الحكمة » والتريث فى تدبير الأمور . وأصبح المجتمع عندئذ معرضا للتهور والاندفاع الذى هو مظهر — بجانب الشجاعة — للقوة الغضبية ، اذا لم تقدها الحكمة .

فالفرق بين الشجاعة والتهور — وكلاهما مظهران للقوة الغضبية — هو : أن العقل فى حال قيادته لهذه القوة يكون العمل الذى تقوم به هو الشجاعة ، بينما فى حالة خضوعه لها يكون عملها هو التهور ، بفعل الاندفاع الذى خلا من التروى .

والمجتمع الذى يتعرض للاندفاع والتهور تنتظره مفاجآت عديدة ، حسب قوة الاغراء بالركون الى القوة المادية ، والى المظاهر المادية فى الحياة الانسانية .

ويصبح المجتمع عندئذ مجتمعا ماديا ، على معنى : انه يقيم الصفحة المادية فى الحياة أكثر مما يقيم الاتزان والحكمة . ومن هذا كان الاغريق فى مجتمعهم مثاليين أو انسانيين ، بينما الرومان كانوا أصحاب نزعة مادية ، وأرستقراطية مادية ، وحضارة مادية . وتجلت هذه المظاهر كلها فى عهد القيصر الرومانى (Trajenus) (٩٨ — ١١٧ بعد الميلاد) .

والأقرب فى المفاجآت التى تنتظر مجتمع الاندفاع والتهور الى الوقوع هى مفاجأة السقوط والزوال . وفعلا سقطت دولة الرومان فى القرن الخامس بعد الميلاد وسط مظاهر مادية كانت لقوتها وضخامتها توحى بالخلود فى حبه البقاء لهذا المجتمع .

وهذا المجتمع الرومانى الطبقى لم تكن مظاهر الطبقية فيه هى هذا التقسيم الثلاثى لطبقاته ، ولا تلك الامتيازات التى كانت للفرسان المحاربين الذين هم فى الوقت نفسه رجال الدولة والسياسة ، وانما أيضا تلك الحروب الطويلة التى استمرت قرابة قرنين من الزمان : من القرن الخامس

الى القرن الثالث قبل الميلاد ، بين الأرستقراطيين والطبقة الشعبية المستضعفة ، وهى الطبقة الدنيا من أجل حقوقها فى المساواة فى الأوضاع الاجتماعية والمدنية .

***

٣ — وبسقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب والشرق على السواء شهدت أوروبا عددا من المجتمعات ، بعد أن استقلت شعوبها الى دويلات ، ولكنها مجتمعات متشابهة فى النظام الطبقى ، تتكون :

الطبقة العليا فيها من الأمراء والنبلاء ،

تليها الطبقة الوسطى من المثقفين ،

ثم تأتى فى الدرجة الدنيا العبيد فى الزراعة وخدمة المنازل .

وكان الأمراء والنبلاء يميلون الى الفروسية والحرب . وبذلك كانوا يشبهون قياصرة الرومان فى الامبراطورية الرومانية ، مع الفارق فى القوة واتساع السلطة والنفوذ .

وموقف الكنيسة الرومانية فى الغرب — وهى الكنيسة الكاثوليكية — طوال القرون الوسطى (من ٣٧٥ — وهو بداية هجرة الشعوب الأوروبية — الى اكتشاف أمريكا سنة ١٤٩٢ بعد الميلاد) هو موقف المبارك للأمراء والنبلاء فى المجتمعات الأوروبية ، سواء فى امتيازاتهم ، أو فى بسط سلطانهم على من عداهم من : المثقفين ، والعبيد . اذ أن الكنيسة بهذا الموقف تفيد كذلك من جاههم وثرواتهم فى تمكين سلطتها ، وزيادة فعاليتها فى التوجه الدينى والسياسى معا . بالاضافة الى الأموال الطائلة التى كانت تجبى أو تمنح من هؤلاء الأمراء والنبلاء للكنيسة والمنظمات التابعة لها ، كالأديرة والملاجىء والمدارس ...

وموقف الكنيسة هذا مع انه كبت علانية الصراع الطبقى فى هذه المجتمعات الأوروبية الى حين ، الا انه لم يستطع أن يحول دون ظهور هذا الصراع فى أعنف صورة فى الوقت المناسب . لأن جذور هذا الصراع فى

المجتمع الأوروبى قائمة وقوية لم تضعف ، تنميها الفوارق الواضحة بين الطبقات والامتيازات العديدة التى لبعضها على بعض .

واخص تلك الفوارق عدم المساواة فى الاعتبار البشرى بين أفراد المجتمع الواحد ، وأوضح تلك الامتيازات : ضمان ترف الحياة لمجموعة ، والشقاء والحرمان من ضروراتها لمجموعة أخرى فيه .

ولو أن الكنيسة لم ترد أن تكون دولة وصاحبة نفوذ واضح عن طريق مظاهر الدولة ، وبقيت للروحية المسيحية والاخوة فى الانسانية .. لربما كان دورها فى المجتمعات الأوروبية وتخفيف حدة الصراع الطبقى فيها أعمق من الدور الذى كانت تمارسه فى جمع « الاحسان » فى صناديق الكنائس وتوزيع بعض ما يجمع على الفقراء واصحاب الحاجة ، بينما رجالها يقلدون الأمراء والنبلاء او يستأمرون الأمراء والنبلاء لجاه الأرض ومظاهر الملك عليها .

***

اختفى الاتجاه الاثينى الفلسفى المثالى فى تكوين المجتمع الاغريقى بعد ذهاب استقلال « أثينا » وخضوع الشعب الاغريقى للامبراطورية الرومانية . ولكن الاتجاه المادى فى تكوين المجتمع الرومانى لم يختف بسقوط الامبراطورية الرومانية وتقسيم أوروبا الى دويلات وظهور مجتمعات صغيرة نسبيا فيها . ولم تستطع روحية المسيحية فى نظامها الكنسى أن تعيد التوازن بين القيمة المادية والاعتبارات الانسانية فى بناء المجتمع الأوروبى ، بعد سقوط الوضع الامبراطورى للدولة الرومانية . وبقى الاتجاه المادى الرومانى يأخذ طريقه الى الأجيال . والمجتمعات الأوروبية التى تلت سقوط الامبراطورية الرومانية فى أوروبا الى الوقت المعاصر .

واذا كان التكوين الطبقى للمجتمع من شأنه أن يثير الفرقة فالخصومة ، فان توكيد الاتجاه المادى فيه يزيد من هوة الفرقة وحدة الخصومة بين طبقاته .

ومن هنا بقى المجتمع الأوروبى قلقا رغم تغير المجتمعات فى أوروبا

وسيظل قلقا وحائرا ، طالما يحتفظ بالنزعة المادية فى تقسيم الانسان . اذ ان هذه النزعه المادية وحدها — وليس التكوين الطبقى — هى التى توقد شعلة الفرقة ، وتحولها الى حرب طبقية ، عندما يكون هناك آثار أو اساس للتكوين الطبقى فى المجتمع .

***

٤ — هذه النزعة المادية — مع وجود التكوين الطبقى للمجتمع الأوروبى بعد سقوط الامبراطورية الرومانية — هى التى مهدت للثورة الفرنسية فى سنة ١٧٨٩ . وهى ثورة الطبقة الوسطى .

وهى كذلك ثورة طبقة المثقفين ضد الأمراء والنبلاء ، اى ضد الطبقة الأرستقراطية فى المجتمع الفرنسى ، وبالطبع كذلك ضد رجال الدين الذين ساعدوا هذه الطبقة على أن تتكون ، وعلى أن تبقى فى قمة المجتمع الأوروبى فترة طويلة .

واذا كانت الثورة الفرنسية يمكن أن يقال فى شأنها : انها قد أعادت المثقفين الى المستوى الأول فى المجتمع الفرنسى ، ويشبه المجتمع الفرنسى آنئذ المجتمع الاغريقى قبل ذهاب استقلاله ، فان الاتجاه المسادى — وقد تحول الآن الى ما يسمى بالاتجاه الواقعى أو بالاتجاه العلمى الطبيعى ، انصرافا عن الاتجاه الروحى الذى تباشره الكنيسة ، أو الى ما يسمى اتجاه البعد عن الدين ، ذلك الاتجاه الذى يبعد من آثار الحضارة الرومانية — قد استمر فى هذا المجتمع الفرنسى الجديد .

والثورة الفرنسية بازالتها الطبقة الأرستقراطية من الأمراء والنبلاء فى المجتمع الأوروبى ،

وبوضعها الطبقة المثقفة وهى الطبقة الوسطى مكانها ،

... حاولت أن تقلل من الفجوات الاجتماعية فى الاعتبار الانسانى بين الطبقات الموروثة . ومن أجل ذلك أعلنت شعارها فى :

١ — الحرية ،

٢ — والمساواة .

٣ ــ والاخـــاء ،

... والحرية التى تنشدها هى الحرية الفردية للجميع .

والمساواة التى تطالب بها هى تلك التى تتصـــل بالحقوق المدنيـــة للجميع أيضـــا .

أما شعار الاخاء فليس الا لرد الاعتبار البشرى للطبقة الدنيا ، وهى التى تقـــوم بالعمل والخدمة اليدوية فى الزراعة أو فى المنـــازل ، أو فى الحرف الصغيرة .

وأهمية الثورة الفرنسية اذن هى فى محاولة تصحيح وضـــع المجتمع الأوروبى بالتغلب على روح الطبقية التى سادت هذا المجتمع قرونا طويلة :

فالقضاء على الأرستقراطية وهى تجسم روح الطبقية ،

ورفع القيمة الانسانية لمن أسىء وضعهم الاجتماعى ، بسبب نوع العمل الذى يقومون به ، ولم يكن بسبب قصورهم فى الجانب الانسانى .

... يؤذن من غير شك ببدىء حياة انسانية جديدة ، تواجه المجتمع الأوروبى ، وتؤتى ثمارها حتما ، لو لم يوقف اتجاهها عامل من المـــاضى أو فتور فى دفعه فى المستقبل .

وقد نجح بالفعل عامل من عوامل الماضى فى التغلب على هذه النزعة الانسانية ، نزعة الاخاء والمساواة .

هذا العامل فى جوهره هو : كراهية « الروحية » التى كان رجـــال الكنيسة يحملون رسالتها وهى لم تكن كراهية مباشرة للروحية المسيحية ذاتها ، بقدر ما هى موجهة الى الكنيسة ونظامها ورجالها .

وكراهية الروحية هذه ــ بجانب سيطرة الاتجاه الطبيعى حملت على الأخذ أو على احياء راسب الحضارة الرومانية فى المجتمع الأوروبى وهو الراسب المادى .

واذا قيم الاتجاه المادى فى حياة المجتمع والانسان ، وبولغ فى تقييمه فلا شك أن تضعف ــ مع مبالغة التقييم ــ النزعة الانسانية فى حيـــاة

المجتمع والانسان .. .. الى أن تتلاشى بالتدريج شيئا فشيئا . رغم أن هذه النزعة كانت أصيلة فى تغيير المجتمع الفرنسى وفى حدوث تلك الثورة التاريخية الكبرى .

ان ارتباط الكنيسة بالطبقة الأرستقراطية فى المجتمع الأوروبى قبل الثورة الفرنسية ، منذ سقوط الدولة الرومانية ، كان ارتباطا غير موفق لرسالة الروحية المسيحية نفسها ، ثم للمجتمع أيضا .

أما عدم توفيق هذا الارتباط بالنسبة لرسالة الروحية المسيحية فذلك فى تجنب الدولة المدنية للدين كلية فى التوجيه وفى خلق تلك الانفصالية بين الدولة والدين :

الدين للكنيسة :

والعلمانية (أى ابعاد الدين) للدولة فى التوجيه : سياسيا ، واقتصاديا، وثقافيا ، وقانونيا .

وأما عدم توفيقه بالنسبة للمجتمع فلأن النزعة العلمانية للدولة قربت اليها « المادية » فى الواقع ، أو قربت اليها العلم فى التوجيه .

وعندما تسود « المادية » توجيه المجتمع يضعف مجال النزعات الانسانية فيه ، أو يستهزأ بها فى اتجاهاته .

وبذلك تبقى روح الطبقية ، ولا تضعف فضلا ، عن أن تموت .

ويكاد من أجل ذلك يكون موقف الكنيسة الرومانية من المجتمعات الأوروبية طوال القرون الوسطى هو الذى أثر على الثورة الانسانية فى أهدافها . ويكاد يكون أيضا هو الذى مهد لفلسفة ماركس وللثورة البلشفية فى أكتوبر سنة ١٩١٧ . وهى ثورة توشك أن تكون العدو الأول ، الذى لم يخلق من قبل . للروحية وللدين . وللنزعات الانسانية الخالصة .

فقضية : « الدين والدولة » هى بذاتها قضية « العلم والدين » فى التاريخ الأوروبى . انها تعبر عن النزاع بين الدين والدولة . أو بين

الكنيسة ورجال السياسة . ذلك النزاع التى عمقت هوته الثورة الفرنسية . للأسباب التى ذكرت من قبل .

● هى قضية تاريخية تخضع للعوامل الاجتماعية الأوروبية فى تاريخ المجتمع الأوروبى . وليست قضية عامة يمكن مثلا أن يكون أحد طرفيها الاسلام . لأن الاسلام لن يتحول يوما ما الى هيئة روحية لها نظام دولى مستقل على نمط الكنيسة . تتنافس فى السيادة فى المجتمع الاسلامى . وتأخذ موقفا معينا لاحدى طبقاته . ان كانت له طبقات .

● فالاسلام بنظامه كان — ولم يزل — كمجموعة من المبادىء والقيم العليا — دين الحياة اليومية . ودين الحياة السياسية . ودين التوجيه الاجتماعى فى المجتمع الاسلامى .

واذا حصل أن وقع فى تاريخ هذا المجتمع الاسلامى فصل بين سلطة تسمى زمنية وأخرى تسمى دينية فلا يعود ذلك الى طبيعة الاسلام . ولا الى رغبة علماء المسلمين فى المناقشة فى السيادة والسلطة . وانما يعود الى الضعف فى قيادة المجتمع التى كانت تنزع الى الدنيا فى انطلاق وفى غير حدود . أو الى ضعف المجتمع نفسه ووقوعه تحت التأثير الأجنبى الذى كان يسعى الى التسلط على المسلمين .

واذا وقف علماء المسلمين فى تحيز للحكام فى المجتمع الاسلامى فى حقبة من الزمن فقد كان ذلك — ويكون — لضعف هؤلاء العلماء ورغبتهم فى الارتزاق بالدين ، وليس من أجل تنافسهم على السلطة كما كان يصنع رجال الكنيسة الرومانية مع طبقة الأمراء والنبلاء فى المجتمع الأوروبى .

وعلى كل حال فقد كانت الثورة الفرنسية هى النداء القوى للمساواة فى الاعتبار الانسانى فى المجتمع الأوروبى . كما كانت محاولة واضحة للقضاء على أسس الطبقية فى تكوين هذا المجتمع الغربى وقد صحبت المطالبة فى الثورة الفرنسية بالمساواة فى الاعتبار البشرى ، فلسفة « اجتماعية » تزعمها الفيلسوف الفرنسى (Comte) (١) « أوجست كونت » واستهدفت من اعتبار علم

---

(١) عاش بن عامى ١٧٩٨ — ١٨٥٧ م .

الاجتماع قمة العلوم ، تقييم القوانين الاجتماعية بما يجعل لها صلاحية فى الاعتبار والتطبيق : تتساوى على الأقل — ان لم تفقها — بصلاحية القوانين الرياضية .

وبذلك تتوفر دلائل الاقتناع فى المنطق الانسانى بوجوب احترام المظاهر الانسانية المشتركة بين الأفراد ، دون الخضوع للقيود والفجوات الموروثة التى صنفت هؤلاء الأفراد الى مستويات وطبقات ، ووضعت بينها حجبا ، وقيمتها بقيم مختلفة ، فكان المجتمع القلق والمتنازع ، صاحب الطبقية .

« وكونت » فى فلسفته الاجتماعية أكد دائما النزعة الانسانية والاعتبار الانسانى ، مما جعل الاتجاه الاجتماعى ذا طابع انسانى ، أكثر مما هو مادى . ومما جعل العلاقات بين الأفراد فى المجتمع ذات ترابط فى القيمة الانسانية أكثر مما هى مبادلات اقتصادية ومادية . حتى انه يجعل ما يعطاه الفرد على عمل ليس أجرا عليه ، وانما هو لقاء ما يجب على المجتمع أن يقدمه للفرد من خدمات .

أما العمل فهو واجب الفرد نحو المجتمع يؤديه دون أن يؤجر عليه . والعمل اذن ليس سلعة ، والانسان كذلك لا يقيم بما يأخذه من المجتمع من أجر .

واذا كانت الثورة الفرنسية فى أصلها هى ثورة من أجل حقوق الانسان .... فهى كذلك ثورة وطنية ، من أجل قيام دولة وطنية فى فرنسا لا تخضع للنفوذ الخارجى .

***

٥ — ولكن لأن الصراع بين العلمانية والروحية ، أو بين الدولة والكنيسة ، أو بين العلم والدين أبعد الاتجاه الانسانى فى الثورة الفرنسية عن أن يضعف روح الطبقية ، ويقضى على مظاهرها وأسسها ... قويت هذه الروح الطبقية من جديد ، وتلا الثورة الفرنسية — فى القرن التاسع عشر — مجتمعات طبقية ، يصور الطبقية العليا فيها :

رجال المال والصناعة والتجارة ، وأصحاب الأملاك الزراعية الواسعة، بدلا من الأمراء والنبلاء فى مجتمعات ما قبل الثورة الفرنسية ،

وبقى المثقفون والمفكرون يمثلون الطبقة الوسطى .

بينما حل عمال المزارع والمصانع بعد أن كثر انتاجها بسبب ما يسمى بالثورة الصناعية ، وهى ثورة الآلة والقوة البخارية محل العبيد والخدم فى تمثيل الطبقة الدنيا فى المجتمعات الأوروبية السابقة .

ونشأت فى هذا القرن التاسع عشر بالذات فلسفة راديكالية تقيم « المادة » وحدها فى الوجود الانسـانى ، كما تقيم الطبقة الدنيا ، وهى طبقة عمال الزراعة والصناعة أو الطبقة الـ (Poletarier) ، بما يجعلها صاحبة الحق الأول فى السيادة ، دون ما عداها من رجال المال والصناعة (الرأسـماليين) ومن المثقفين والمفكرين أى دون الطبقتين الأخريين .

و « كارل ماركس » (Karl Marx) (١) بما كتبه فى « رأس المال » وفى « اعلان الثورة » يعتبر الفيلسـوف الذى قنن هذه الفلسفة « المادية » الراديكالية ، وجعلها صـالحة للتطبيق . وهى لا تخرج عن جملـة نقاط رئيسية :

١ ـ صراع الطبقات وأنه حقيقة تاريخية .

٢ ـ استغلال بعض الطبقات لبعض ؛

٣ ـ وجوب استيلاء الطبقة العاملة على السلطة ، بالثورة المسلحة ،

٤ ـ قيام ديكتاتورية العمال ، بحيث لا يسـمح فيها لآخرين دونهم بالاشتراك فى السلطة أو التوجيه والرأى .

وفى ظل ديكتاتورية العمال :

(أ) تلغى التشكيلات والتنظيمات والأحزاب السياسية القائمة ،

(ب) وتلغى الملكية الخاصة ،

---

(١) عاش بن عامى ١٨١٨ ـ ١٨٨٣ .

(ج) وتؤمم الصناعة والتجارة الداخلية والخارجية ، والملكية العقارية .

(د) وتنشأ المزارع الجماعية .

(هـ) وتكافح الكنيسة مكافحة لا هوادة فيها . ويكافح الايمان وتشجع الحركة الالحادية .

(و) وتلغى الأوقاف على الشئون الدينية .

(ز) ويبشر بالثورة العالمية على انها حتمية الوقوع .

قام انقلاب الـ (Commune) فى باريس سنة ١٨٧١ وأعقبه قتال فى شوارع المدينة طوال الأشهر الثلاثة : مارس . ابريل . مايو من عام الانقلاب .

ولكنه انتهى بسفك الدماء . وهو انقلاب شيوعى يستهدف تحقيق التوازن فى توزيع الثروة القومية . ولكنه كان لمصلحة العمال أو الطبقة الدنيا فى المجتمع .

... حتى جاءت الثورة الروسية فى أكتوبر سنة ١٩١٧ . وهى ثورة الطبقة العاملة . أو ثورة الفلسفة الماركسية . أو الشيوعية . أو البلشفية .

هذه ثورة عمالية ضد الطبقية .

وتلك — وهى الثورة الفرنسية — ثورة الطبقة الوسطى ضد الطبقية .

وشتان بين نزعة كل من الثورتين .

احداهما . وهى الثورة الفرنسية . وان لم تنجح فى تحقيق هدفها .

وثانيتهما — وهى الثورة الشيوعية أو البلشفية — مادية بلغت فى الاتجاه المادى حدا سلبت معه الفرد من الانسان خصائص انسانيته .

... وكلتاهما تدعى استهداف الغاء الطبقية فى المجتمع الانسانى الاوروبى . ولكن واقع الأمر فيهما : أن الثورة كانت موجهة :

للقضاء على الطبقة العليا فى المجتمع الذى قامت فيه .

ولرفع الطبقة التى قامت باسمها الثورة الى المستوى الأول المتميز فى الطبقية .

... فالطبقة العليا فى المجتمع الفرنسى — قبل الثورة الفرنسية — كانت تتكون من الأمراء والنبلاء أى من الأرستقراطيين فقضت هذه الثورة عليها باسم : الاخوة والحرية والمساواة .

والطبقة العليا فى المجتمع الصناعى الأوروبى — الذى عاش فيه ماركس — كانت طبقة أصحاب رؤوس الأموال من رجال الصناعة . والتجارة ، ورجال المال وأصحاب الأراضى الزراعية الواسعة فيما يسمى غرب أوروبا الآن .

وعندما طبقت فلسفة ماركس عن طريق الثورة الشيوعية الروسية فى ما يسمى الآن بالاتحاد السوفييتى قضت هذه الثورة :

على من هم فى منزله أصحاب رؤوس الأموال ممن يكونون الطبقة العليا وهم : القيصر وأعوانه . وأصحاب الأراضى الزراعية باسم ثورة الـ (Poletarier) تحت شعار حتمية الحل الاشتراكى .

... وبينما حلت الطبقة الوسطى من المثقفين والمفكرين محل الأرستقراطيين فى مجتمع الثورة الفرنسية . حل عمال المصانع والفلاحون فى الأراضى الزراعية محل القيصر ورجاله وأصحاب الأملاك ومن فى أيديهم المال من التجار ومساهمو البنوك فى مجتمع الثورة الشيوعية أو البلشفية أو الماركسية .

... أما الطبقة التى لم يكن مستهدفا القضاء عليها من أى من الثورتين وهى :

الطبقة الدنيا من العمال والخدم فى الثورة الفرنسية .

والطبقة الوسطى من المثقفين والمفكرين فى الثورة الشيوعية أو البلشفية .

... فحلت فى المنزلة التالية لتلك التى قامت باسمها الثورة . والتى رفعت الآن الى الطبقة العليا .

اى أن طبقة العمال والخدم فى الثورة الفرنسية أخذت فى هذه الثورة منزلة الطبقة الثانية بعد المثقفين بينما أخذ المثقفون والمفكرون منزلة الطبقة الثانية فى مجتمع الثورة الشيوعية أو البلشفية بعد أن احتل عمال المصانع والفلاحون منزلة الطبقة الأولى فى هذا المجتمع .

وتعبير الشيوعية عن العمال بأنهم أصحاب المصلحة الأولى . أو أصحاب المصلحة الحقيقية هو صنو تماما لما يوصفون به بأنهم يمثلون الطبقة المتميزة فى المجتمع الثورى الشيوعى .

ورغم أن الثورة الشيوعية الروسية قامت باسم العمال والفلاحين الا أنها لم تمكنهم حتى الآن من أن يكونوا أصحاب السلطة الحقيقية . أو بعبارة أخرى لم تمكنهم من أن يكونوا الطبقة المتميزة فعلا فى المجتمع الشيوعى . كما كانت تعلن فى شعاراتها المختلفة .

فزعيم هذه الثورة فى سنة ١٩١٧ وهو « لينين » (Lenin) (١) رأى — الى أن يتمكن العمال من مباشرة السيادة الفعلية ومباشرة السلطة فى المجتمع الثورى الشيوعى — أن يتولى نيابة عنهم : الحزب الشيوعى فى المباشرة للأمر وقيادة المجتمع العمالى الثورى .

ويمضى الآن فى — ٧ نوفمبر سنة ١٩٦٧ — خمسون عاما على قيام هذه الثورة البلشفية ولم تنتهيأ بعد فى نظر الحزب ، صلاحية للعمال يباشرون بها السلطة فى المجتمع الروسى وظل الحزب الشيوعى يتولاها نيابة عنهم على نحو ما رأى « لينين » فى نوفمبر سنة ١٩١٧ .

ويتولى الحزب الشيوعى صلاحيات العمال فى مباشرة السلطة وسيادة الدولة فى المجتمع الشيوعى — وكذا فى المجتمعات الشيوعية ذات الحزب الواحد — يكون :

الحزب هو الطبقة العليا والمتميزة التى تمخضت عنها الثورة الشيوعية العمالية وهى كذلك التى تمثل قمة هذا المجتمع الماركسى .

---

(١) عاش بن عامى : ١٨٧٠ — ١٩٢٤ .

أصبح « الحزب » قمة المجتمع الثورى الشيوعى ، أو الماركسى اللينينى وأصبح « أعضاء الحزب » يمثلون الأرستقراطية الجديدة التى لها امتيازات الأمراء والنبلاء أو أكثر من مجتمع ما قبل الثورة الفرنسية .

وبقى من عداهم — وهم جميعا عمال — فى الطبقة الثانية .

أما المفكرون والمثقفون فلهم منزلة الدرجة الدنيا رغم تفوقهم فى الأجور بكثير عن العمال . لأنهم ليسوا أصحاب المصلحة الحقيقية فى الثورة البلوريتارية .

وفضلا عن أن « الحزب » وأعضاءه يتمتعون بالمنزلة الأولى فى هذا المجتمع العمالى سواء فى الأجور أو الخدمات : كالمساكن أو اقتناء وسائل الراحة كالسيارات ، أو فى تولى الوظائف الرئيسية كلها بما فيها وظائف السلك السياسى الخارجى ووظائف الاقتصاد والمال .. فلهم مع ذلك : « قداسة » رجال الكنيسة الأرثوزكسية .

و « عصمة » بطريارك « القسطنطينية » .

فلا يجوز نقدهم ، ولا نقد الحزب .

وتجب طاعته بدون مناقشة أو معارضة .

والحزب فوق الدولة وفوق رياستها ، وفوق الحكومة والسلطة التشريعية .

وليست هذه هى المنزلة التى كانت للطبقة الأرستقراطية فى المجتمعات السابقة بل تكاد تكون منزلة الألوهية .

ومن أجل ذلك ، تصور الفجوة الاجتماعية التى بين الحزب من جانب والطبقة العاملة من جانب آخر فجوة كبيرة ، وصعبة فى تخطيها .

وهكذا .. ممارسة تطبيق الماركسية اللينينية فى أول مجتمع ثورى ، ماركسى عمالى لم تذهب فحسب بما تسميه الماركسية « بمجتمع عديم الطبقات » . بل خلقت أظلم صورة من الطبقية انعدم فيها الكيان الوجودى

لمن عدا أعضاء « الحزب » كأشخاص لهم حرمات ولهم طاقات انسانية فى التفكير والرأى والتعبير عنه .

ويكاد يذكرنا وضع « الحزب » فى المجتمع الثورى الشيوعى الماركسى بفكرة : « وحدة الوجود » الهندية القديمة التى كانت ترى : أن الوجود كله هو الاله الأكبر « براهما » وحده وأن ما عداه من الكائنات الأخرى حتى الانسان فهو « عدم » لا يتمتع بصفة الوجود ، الا اذا اتحد مع « براهما » نفسه الاله الأكبر .

واذا كانت الثورة الفرنسية ترى فى نظام الكنيسة عونا للمجتمع السابق عليها ، ومن أجل ذلك طالبت بالفصل بين الدين والدولة وأخذت بمبدأ « العلمانية » فى شئون الدولة وتركت للكنيسة شأنها مع الدين .. فان الثورة الشيوعية الروسية رأت — وترى — أن « الالحاد » والعمل على هدم الدين وهدم الأخلاق القائمة عليه . أمر ضرورى لانجاح « الثورة » ولذا سميت فلسفة هذه الثورة باسم « الاشتراكية العلمية » .

و « الاشتراكية العلمية » مصطلح فلسفى قصد به فى الدرجة الأولى فى هذه الفلسفة : تحدى الدين .

والعمل بكل الوسائل « العلمية » على اجتثاث جذوره .

ووسائل تحدى الدين ، والعمل على هدمه فى التطبيق الماركسى اللينينى تراها الماركسية اللينينية فى :

(أ) اسقاط هيبة رجال الدين ، والعمل على السخرية منهم ، فى جميع أجهزة الاعلام الحديثة .

(ب) اضطهاد الكنيسة — أو ما يشبهها من الهيئات الدينية — وتحريم الانتساب اليها ، أو زيارتها على أعضاء الحزب والشباب ،

(ج) مصادرة الأوقاف الدينية ،

وتحويل ممتلكاتها الزراعية الى الهيئات العامة المتخصصة فى شئون

الزراعة ، واسناد مباشرة [illegible] العقارية الى المجالس البلدية والحكم المحلى .

وتحويل الأموال السائلة الى جهات التنمية والاستثمارات فى الدولة .

مع اغفال الاشارة اليها فى وسائل الاعلام أو فى الأحاديث والمحاضرات والدروس .

(د) تقييد حرية الصحافة ، كما أوصى « لينين » . اذ يقول فى هذا الشأن : « حرية الصحافة تقوى نفوذ العالم البرجوازى » (ج٣٢ ص ٥٣٠ من كتاب « لينين ») . وكما يقول :

« حرية الصحافة معناها : أن آراء جميع المدنيين يمكن أن تنتشر . والآن يملك الكلمة الأغنياء والأحزاب السياسية الكبيرة » (ج ٢٥ص٣٩١).

واذا قدر أن وجد فى نظام حزب شيوعى ماركسى — كالحزب الوطنى فى أندونيسيا مثلا على عهد الرئيس سوكارنو — ما ينص على احترام ما يسمى ب « القيم الروحية » ... فذلك أمر يتعلق فحسب بمرحلة التطبيق للماركسية ، كما يوصى « لينين » نفسه بمبدأ : « المراحل » فى التطبيق ، للمواءمة مؤقتا بين العقيدة الجديدة وهى الماركسية من جانب ، وبقاء الحماس العقيدى للايمان القديم من جانب آخر ، حتى لا تنتكس الشيوعية بمعارضة قوية من بقايا رجال الدين القديم وأفكارهم .

فالتعبير عن احترام « القيم الروحية » فى هذا النظام الماركسى المستعار لنظام الحزب الوطنى الأندونيسى تعبير اجوف لا واقع له . لأن أول سؤال يتبادر الى الذهن عند قراءته هو : اية قيم روحية ؟

أهى القيم الروحية فى الاسلام ؟

أم القيم الروحية فى المسيحية ؟

أم هى التى فى اليهودية ؟

أم هى الأخرى التى فى الديانات القديمة ، كالبوذية والبراهمية ؟

obeikandl.com

ام هى خليط مما فى هذه الأديان ؟

ثم كيف يتم تنسيقه وانتقاؤه ؟

ان موقف الاسلام من الديانات السابقة عليه واضح ومعلوم . فكيف تكون القيم الروحية فى الأديان السابقة عليه ممثلة لاتجاهاته ؟

كيف تنسجم فى المسيحية مثلا :

روحية التثليث ،

وعصمة الانسان (البابا)

« ونيابته » عن الله فى الحكومة على الأرض — وتلك هى خصائص المسيحية — مع وحدانية الله فى الاسلام .

وجواز الخطأ على الانسان كما يجوز عليه الصواب ، فى اجتهاده فى تطبيق مبادىء الدين فى محيط نفسه وأسرته وأمته ، وهى ميزات الاسلام ؟

كيف تنسجم فى اليهودية مثلا خصائصها التى تتمثل فى :

روحية شعب الله المختار ،

مع المساواة فى الاسلام التى عبر عنها القرآن الكريم فى قوله تعالى : **« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم »** (١)

كيف تنسجم :

روحية وحدة الوجود ،

والحلول .

والاتحاد فى البرهمية الهندية القديمة .

مع روحية الاسلام فى الله وفى صلته بخلقه ؟

---

(١) الحجرات : ١٣

ثم ان التعبير فى فلسفة الماركسية بالاشتراكية العلمية صريح وواضح تماما فى الغاء الدين والعمل بلا هوادة وبلا رفق على استئصاله .

فكيف يجمع فى نظام فلسفى واحد بين هذا التعبير من الدين ، والتعبير الآخر عن احترام القيم الروحية ؟

ان هذا التعبير الثانى — وهو القيم الروحية فى نظام ماركسى — هو نفاق ، أو خداع أو مداراة ممن يأخذ بالنظام الماركسى ، ويحاول أن يطبقه فى مجتمع له دين قائم ، وبالأخص فى مجتمع يؤمن بالاسلام .

والمجتمع الماركسى أو الشيوعى اذ يبالغ فى تحدى الدين ،

يتأثر أولا بموقف الثورة الفرنسية قبله من الكنيسة والدين ،

وثانيا بالمادية المفرطة التى تكون خطوط التفكير الفلسفى للماركسية .

ومع ذلك ففى التطبيق الماركسى حاول « لينين » أن يضفى على الفلسفة الماركسية خصائص العقيدة والدين ، وهى القبول بدون مناقشة ، وعدم حرية الرأى فى تقييمها ،

... كما حاول أن يستعير من الدين أوصاف « الجنة » للغد الأفضل الذى يبشر به ، بل قد نقل بالفعل جنة السماء الى الأرض فى « الغد الأفضل » ، رغم أنها لا ترى عليها أبدا ، ورغم الحديث عنها المتكرر فى وسائل الاعلام ، ورغم التطلع الى رؤيتها من العمال الكادحين .

ولكن يظهر أن التطبيق الماركسى احتفظ أيضا بخصيصة جنة السماء — وهى أنها لا ترى الآن — حتى يكمل التشابه بينها وبين جنة الأرض فى الماركسية ، وهى غدها الأفضل .

لكن كيف : لا ترى جنة ماركس على الأرض ، وهو لا يؤمن الا « بالمادية » ؟ .

... بالاضافة الى أن « لينين » نقل قدسية الكنيسة . وعصمة رئيسها ، الى الحزب الشيوعى وسكرتيره العام .

ان المجتمع الأوروبى تأصل وقام على روح الطبقية ،

ولازمته هذه الروح فى تطوره وتغيراته المختلفة ،

وما زالت باقية فيه ، مهما كانت صنوف الثورات وتعدد شعاراتها .

ولن تخف هذه الروح أو تنعدم الا اذا سادت الروح الانسانية وحدها ، وعلت كل عامل آخر فى تسيير المجتمع .

والثورات التى قامت فى أوروبا حتى الآن بقيت على هامش المجتمع الاوروبى ، بفعل ما كانت تتجه اليه من ميول مادية .

***

obeikandl.com